مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

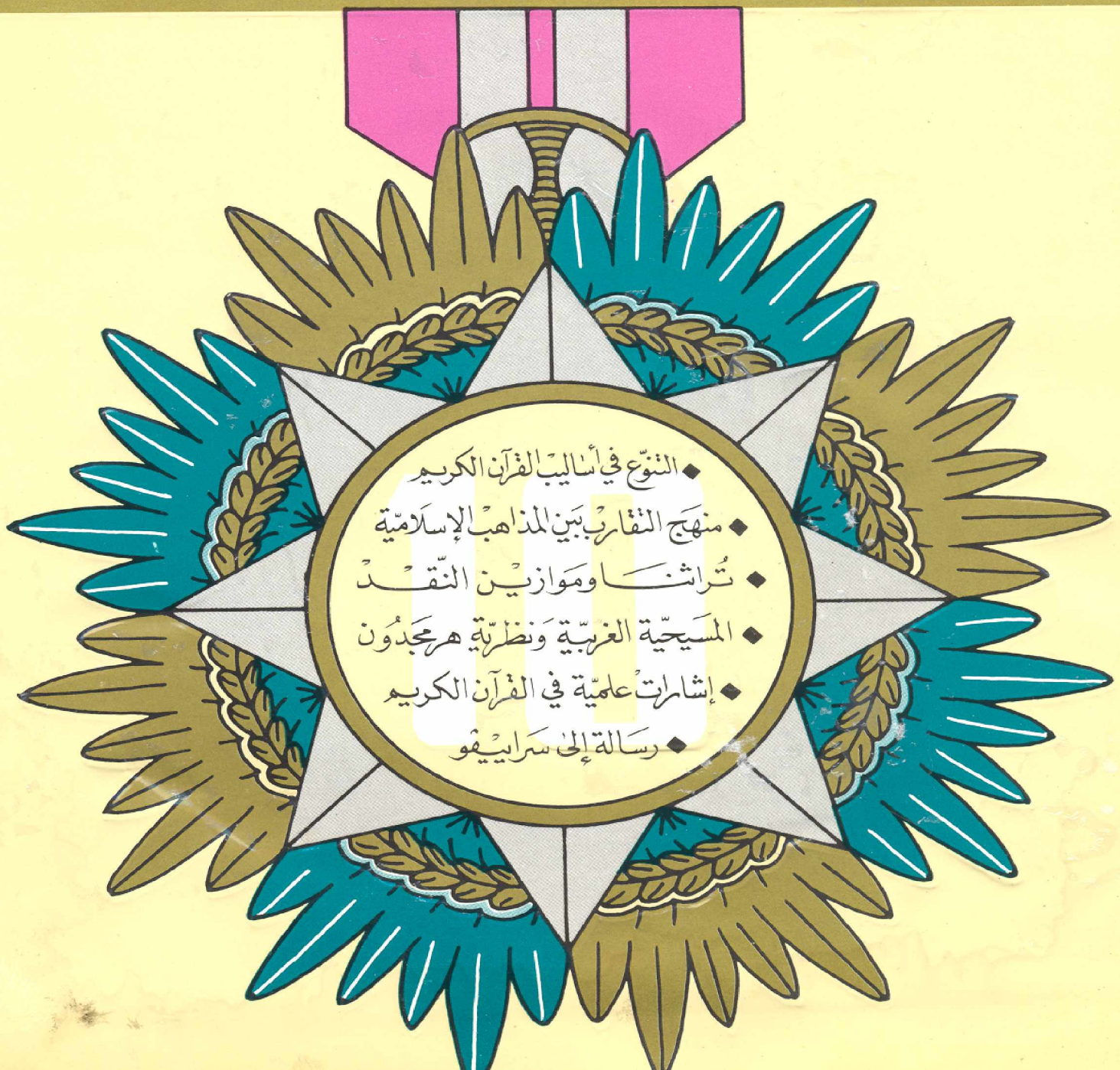

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

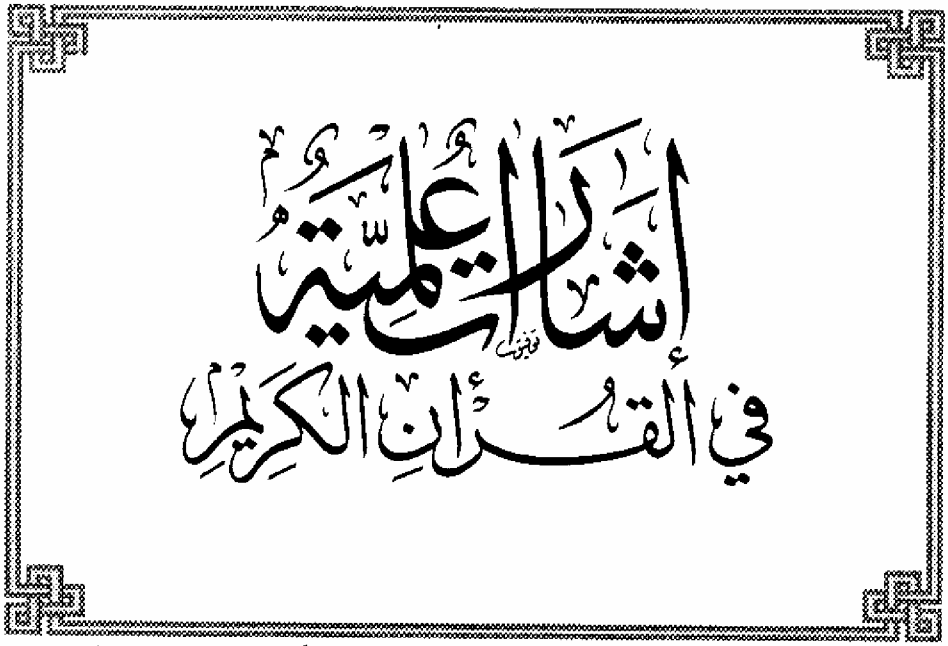

الدكتور محمود النّائب
الجماهيرية العظمى

استمعت بكل جوارحي الشديدة اليقظة إلى محاضرة للأستاذ الفاضل الدكتور جيوفاني زيقلير، ألقاها بصفته أستاذاً زائراً محاضراً في علم الأديان المقارن، وأشعر بأن عقيدتي الدينية تلزمني بتقديم واجب الشكر له على دراسته للقرآن الكريم كتاب الإسلام الأول المنزل على رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ. وليسمح لي حضرته بأن أرفع من نفسي إلى درجة قد يقصر عنها علمي فأنقد محاضرته القيمة، بينما أنا لست إلا طالب علم معلوماته متواضعة وجهده قليل. غير أن وثوقي من تقديره السليم لدوافعي الدينية أولاً والعلمية ثانياً، سيجعله يغفر لي جرأتي عندما أقول: إن محاضرته حوت هنات لا يسع المسلم الصادق الإيمان التغاضي عنها، وأمهد لنقدي فأبين أن القرآن الكريم أنزله الله جل وعلا بوساطة أمين الوحي جبرائيل على قلب محمد ﷺ، منجماً في مدة تقارب 21 سنة، مع احتساب فترة فتور الوحي مدة تقارب الثلاثين شهراً،

إذ إن أول الوحي نزل في رمضان من عام البعثة، وكانت سنه ﷺ 40 سنة ثم فتر الوحي أشهراً جاوزت العشرين ولم تبلغ الثلاثين، ثم عاد واستمر إلى قبيل وفاته بساعات قليلة وكانت سنه ﷺ 63 سنة.

سور القرآن:

خلافاً لما أورده الأستاذ المحاضر في محاضرته القيمة، فإن عدد سور القرآن المجيد الذي أجمعت على صحته الأمة الإسلامية منذ ما ينوف عن 14 قرناً هو 114 سورة، وليس 112 كما ذكر. ولا شك أن الأستاذ المحاضر يعلم حق العلم حقيقة الفئة الضالة التي ادعت أن سورة يوسف عليه السلام ليست من القرآن، وترى أنها قصة غرامية ـ أوردها مستغفراً الله من ذنب ترديد افترائها، داعياً الله بالهداية لتلك الفئة ـ وذكره لهذا الرأي الشاذ لفئة صغيرة ضالة يضعف ـ من جهة علمية بحتة ـ الثقة في محاضرته إن لم يلغها البتة.

إن ستة وثمانين سورة من (سور القرآن الـ 114) نزلت بمكة المكرمة، والـ 28 سورة الباقية نزلت بالمدينة المنورة. وباستثناء قصار السور، لم تنزل سورة واحدة متكاملة دفعة واحدة، بل كانت الآيات تترى على محمد ﷺ في مناسبات أوضحتها كل الوضوح كتب أسباب النزول، إذ ما من آية نزلت إلا وسبب نزولها معلوم ومكانه معروف، يعلم بهما المسلمون، كما يعلم بهما عامة معارضي رسالة الإسلام من المشركين المجاورين للمسلمين. وكان ﷺ يأمر كتبة الوحي والحفاظ بوضع كل آية تنزل في مكانها بين آية كذا وآية كذا من سورتها. وترتيب توالي الآيات والسور أمر توقيفي من الله تعالى لا دخل للبشر فيه، لذلك قبله الصحابة كما هو وقبلناه كما قبله المسلمون من يوم نزول الروح الأمين به على محمد ﷺ حتى يوم الناس هذا. ومن هنا جاءت بعض الآيات المدنية في سور مكية، والقليل من الآيات المكية في سور مدنية. وجميع سور القرآن نزلت في مكة أو المدينة، وإن كان القليل جداً من آياتها نزل في غير هاتين المدينتين منها: الآية 45 من سورة محمد ﷺ التي نزلت في الطريق في أثناء هجرته من

مكة إلى المدينة. والآيات التي نـزلت بمنى وآية ﴿**اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسـلام ديناً**﴾[1] التي نـزلت في حجـة الوداع. وهناك من علماء المسلمين من يرى أن سبب حرمة بيت المقدس وما فاض منها على مدينة القدس هو نزول الآية 45 من سورة الزخرف على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فشملتها حرمة الحرمين الشريفين ذاتها لنزول آية من القرآن بها ونص تلك الآية هو: ﴿**وسئل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبـدون**﴾[2]. ونحن والأستاذ المحـاضر نعلم أن المشـركين من قريش ومعهم المنافقون كانوا يتصيدون أقـل خطأ في القـرآن، وما كـان أشد فرحتهم لو وجدوا كلمة فيه في غير موضعها أو يتضارب معناها مع معنى كلمة غيرها فيتخذون منها برهاناً على ما يدعونه من زيف رسالة محمد ﷺ. كما أن المسلمين الصادقين إنما ثبت إيمانهم بسبب إحساسهم الشديد بصدق كل كلمة استمعوا إليها من شفتي رسول الله ﷺ. وهل يعقل أن المشركين الذين جاهروا بتكذيب الرسول في دعواه ثم حاربوه بسيوفهم يحجمون في الـوقت نفسه عن التشهير بأي عيب في القرآن لو عثروا فيه على عيب واحد؟.

بلاغة القرآن:

على الرغم من قول المحاضر أن أسلوب القرآن أسلوب صعب له نسيج لغوي خاص، يصعب على الكثير من العرب فهمه، فما بال المستمعين من غير العرب فلا أراني في حاجة إلى أن أقـول له بأن العرب عندما كانوا عرباً أقحاحاً لم يكونوا في حاجة إلى محاضر يفهمهم لغة القرآن، إذ الواقع أن أميي الصحابة لم يتعذر عليهم فهمه: أسلوباً ومبنى ومعنى. كما لا أجـدني في حاجـة إلى الحديث عن بلاغة القرآن وإعجازه فأمرهما معروف مشهور عند المنصفين من جميع الملل والنحل. وقد سهر العلماء المجدون الليالي الطوال في تفهم مرامي

---

(1) سورة المائدة، آية: 3.

(2) سورة الزخرف، آية: 45.

القرآن والغوص في معانيه، كما سهر أمثالهم من أعداء القرآن في استقرائه لفظاً ومبنى ومعنى ليعثروا على هنة واحدة فلم يظفروا بطائل، بل آبوا بفكر مضطرب يعصف به ما يتفاعل في سرائرهم من صراع، عندما وجدوا أنفسهم ضحية التعارض بين إصرارهم على تكذيب القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين ما يعرفونه في أنفسهم من صادق الإحساس بصدق كلمات القرآن وانسجامها مع العقل السليم والفطرة الإنسانية السوية، وإن ما صدهم عن التصديق به إلا العناد المدعوم بحبهم للبقاء على الكفر الذي يبيح لهم التمتع بالشهوات وأكل أموال الناس بالباطل خلافاً للقرآن الذي يلقي على كواهلهم ما لم يألفوا من واجبات حيال أنفسهم وحيال الآخرين من الناس، ويلزمهم بالمطامنة من كبريائهم حتى يسلموا بتساويهم مع عبيدهم ومع من يعايشون من المستضعفين، كما يلزمهم بالتخلي عن قسم معلوم من أموالهم لثماني فئات من البشر يقولون عنهم لو شاء الله لأغناهم. ومن مظاهر حيرتهم بين التصديق والإصرار على العناد ما تعرض له الحكم بن هشام الشهير بأبي جهل، من أزمة نفسية أمام سؤال صديق له عما إذا كان محمد صادقاً فاضطر إلى الرد على السؤال بإجابة ملتوية اعترف خلالها بأنه لا يقبل إضافة شرف النبوة إلى مفاخر السقاية والرفادة التي يفخر بها بنو هاشم. إذن فهو الحسد الذي سيطر على حواسه فأعماه عن رؤية الحق حتى رمى الرسول بالسحر والجنون، وكل صفة مزرية ظن أنها تؤيد عند العرب رأيه في محمد فتنفر الناس منه. ونجده يناقض نفسه أمام صديق آخر سأله أيضاً هل يكذب محمد؟ فقال له إنه لصادق ولكن جنونه يجعله يتخيل أنه يستمع إلى أشياء فيصدقها ويذيعها بين الناس. وإنه لمن الحقائق التاريخية التي رواها أهل مكة مسلمهم وكافرهم، أن عتبة بن ربيعة أحد كبراء مشركي قريش وضع يده على فم الرسول ﷺ ليمنعه من مواصلة إسماعه له القرآن الكريم خوفاً من أن يتأثر به إذا ما استمع إلى آياته البينات[3]. أو يتأثر زعيم من عتاة قريش بكلمات مكذوبة؟ اللهم لا. فالإنسان مهما كان معتقده لا

---

(3) ابن كثير ج 6 ص 160 ط دار الأندلس.

يتأثر إلا بالصادق من القول. ولا تسمح الفرصة بإغفال خبر ذلك الصحابي، الذي نفره المشركون من الاستماع إلى القرآن الذي يتلوه رسول بني هاشم فحشى أذنيه قطناً، ومع ذلك فما أن استقبلت أذناه كلام الله، على الرغم مما سدهما به من قطن، حتى زلزل صدق كلمات القرآن ما ران على وجدانه من كفر فأسلم وصار من دعاة الإنصات إلى كلام الله.

جمع القرآن الكريم:

خلافاً لما جاء في المحاضرة من أن بعض القرآن كتب في حياة الرسول أقول: إن القرآن الكريم كتب كله في حياة الرسول ﷺ وتحت إشرافه الشخصي في رقوق وجلود وعلى لخاف الحجر وألواح الخشب وكرناف النخل وعظام أكتاف الحيوانات المأكولة اللحم، وما تيسر من مواد تصلح بديلاً عن الورق النادر الوجود. وحفظ هذا المصحف الذي شارك في كتابته عدد من كتاب الوحي عد منهم بعض مؤرخي الإسلام خمسة وثلاثين كاتباً كلهم ثقاة، من بينهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين. وكان الرسول الكريم يدعو أقربهم إليه مكاناً ليكتب الآيات المنزلة فور نزولها أولاً بأول، كما كان ﷺ يستقرىء كاتب الوحي ما كتب فور فراغه من الكتابة. وأحصى المستشرق الأستاذ بلاشير من كتاب الوحي أربعين صحابياً[4]. وكان رسول الله ﷺ يلقن المسلمين القرآن حتى حفظه منهم عن ظهر قلب جم غفير. وبعيد انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، وتولي أبي بكر الصديق الخلافة ـ واستشهاد عدد ملحوظ من حفظة القرآن من الصحابة في حروب الردة، طلب إلى زيد بن ثابت أول كاتب للنبي ﷺ أن يعد نسخة من القرآن ففعل[5]. وقام زيد أيضاً ـ اتباعاً منه لمشورة

(4) دساس سالم الحاج: نفى برجى بلاشير كتابة القرآن كله في حياة الرسول (ص) الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية الجزء 1 ص 375.

(5) بوكاي القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 155 ط جمعية الدعوة.

لعمر بن الخطاب، وكان آنئذ قاضي المدينة المنورة ـ بمراجعة كل ما استطاع مراجعته من وثائق المدينة من شهادات الحفاظ، ونسخ ما كتبه الصحابة لأنفسهم. وتقول المصادر التاريخية إن عمر بن الخطاب بعد أن تولى الخلافة بعد أبي بكر هو الذي جعل من القرآن مصحفاً واحداً واحتفظ به، وأعطاه عند موته إلى ابنته حفصة زوج النبي ﷺ [6]. أما الخليفة الثالث عثمان بن عفان فقد كلف زيد بن ثابت وخمسة من الصحابة بكتابة المصحف أخذاً من صدور المسلمين، ونسخاً مما سبقت كتابته عليه من ألواح خشب وعسيب نخل، وكل ما استخدم من مواد غيرها، وهي المواد التي كانت تشكل صفحات أول نسخة مكتوبة من القرآن في حياة النبي ﷺ. وكتب الصحابة الستة خمس نسخ منه في بعض الروايات وأربع نسخ في غيرها، احتفظ الخليفة بواحدة في دار الخلافة، ووزع الباقي على الأمصار. وأحرق كل ما استخدم على عهد الرسول الكريم بديلاً عن الورق من مواد كانت قد حفظت بعد وفاته ﷺ عند رفيق هجرته أبي بكر الصديق، وبعد وفاته حفظت عند زوج النبي حفصة بنت عمر رضي الله عنهم أجمعين. وبلغ من حرص المسلمين على تدوين التنزيل كما أنزله الله أن عمر بن الخطاب قام في الناس نذيراً وقال لهم: من تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به، فأقبل الصحابة كل بما عنده، غير أن عمر لم يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد صحابيان على صحة التلقي؛ وكان معروفاً لدى الصحابة أجمعين أن النبي الصادق الأمين قد بلغ به الحرص على دقة كتابة التنزيل حداً جعله يأمر «بألا يكتب كتاب الوحي عنه شيئاً غير القرآن»، ومما صح من أحاديثه الموجهة إلى أولئك الكتاب ما رواه مسلم أنه قال «لا تكتبوا عني غير القرآن»[7] واقتداء من زيد ورفاقه الخمسة برسولهم الحريص الأمين وإطاعة لأوامره، كان التزامهم بالدقة البالغة في عملهم والتحري فيه أشد ما يكون التحري. فكان زيد يدون الآيات التي تحفظها معه الجماعة المستفيضة من المسلمين؛ أما الآيات

---

(6) نفس المصدر.

(7) صحيح مسلم ج 4 ص 2298 ط دار إحياء التراث ونصه لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه.

التي يحفظها المسلم والمسلمان الاثنان، فكان زيد ورفاقه يدققون في أمرها أشد التدقيق، مثلما فعلوا عندما وجدوا آخر سورة براءة مع الصحابي الجليل أبي خزيمة، ولم يجدوها مع أحد غيره؛ وكانت من: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر السورة.

الإنجيل والقرآن:

وحيث إن المحاضر سهى عن إيضاح رأي القرآن في الإنجيل الذي بين أيدي الناس، فقد صار من واجبي أن أذكر أن القرآن قرر أن الإنجيل كتاب سماوي منزل من الله مثله مثل القرآن، كما قرر أن الأحبار الذين جاءوا بعد عيسى عليه السلام، حرفوا الإنجيل المنزل تحريفاً شديداً؛ ومن المعلوم أن كتابة الإنجيل بدأت بعد وفاة المسيح بما يزيد عن نصف قرن؛ وأن كتابها اعتمدوا على ذاكرات من أخبروهم بأنهم سمعوا عيسى يقول أقوالاً، كتبها الكاتب وفق فهم السامع وبلفظه هو لا لفظ المسيح؛ ويشهد تاريخ المسيحية بأن أكثر كتاب الأناجيل ولدوا مع وفاة المسيح، ومع ذلك فقد تباروا في كتابة الأناجيل حتى بلغت حداً مهولاً قدره بعض مؤرخيها بما يزيد عن مائة إنجيل، مما دفع الكنيسة إلى جمعها واختيار أربعة منها هي: إنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل حنا وإنجيل مرقص. واعتمدت هذه الأناجيل الأربعة بوصفها كتباً ناطقة بالديانة المسيحية، وأمرت بحرق ما عداها، ولم يفلت من الأناجيل المرفوضة من الكنيسة إلا إنجيل برنابا. وهذا الإنجيل يتفق في معظمه مع ما ورد في إنجيل أو آخر من الأناجيل الأربعة المعتمدة، لكنه يشذ عنها في نقطتين رئيستين: الأولى إنكاره لألوهية عيسى، والثانية نكرانه للصلب، وهاتان النقطتان هما العمود الفقري الذي تقوم عليه المسيحية، لذلك حاربت الكنيسة إنجيل برنابا حرباً شديدة، إذ إنّ في انهيار فكرة بنوة المسيح لله وصلبه لتخليص أتباعه من إثم عصيان آدم لأمر من أوامر ربه انهيار لأعظم الأسس التي تقوم عليها الكنيسة ومعتقداتها.

المسيح في القرآن:

تحدث المحاضر عن نظرة الإسلام إلى المسيح بلهجة توحي بعداء

الإسلام للمسيح. وعدا هذه النقطة لم يأت بجديد؛ فنحن على خلاف ما أراد أن يوحي به لا نؤله غير الله، لا المسيح ولا غيره من المخلوقات، وليس في عدم اعترافنا بألوهية المسيح عداء له، ولم يكن المسلمون الذين ينكرون صلب المسيح هم الذين صلبوا مسيح المسيحيين. وأعتقد أن المحاضر لم يحالفه التوفيق بتلميحه إلى قصة أسباب الصراع بين المسلمين والهندوس، فنحن ننزل المسيح منزلة أولي العزم من الرسل، ولا نفرق بين أحد من رسل الله وغيره من الرسل اتباعاً لما جاء في القرآن. أما القصة التي ألح إليها المحاضر فنختصرها لمن لا يعرفها في الجمل التالية: سأل بعض الإنجليز شيخ مؤرخيهم آرنولد توينبي عن سبب التقاتل بين المسلمين والهندوس فأجابهم: «إنه البقرة فالهندوس يعبدونها والمسلمون يأكلونها» أما القرآن فقد أنزل عيسى منزلة عالية وأشاد برسالته ونبوته وغرابة مولده لكون ذلك المولد آية من آيات الله، إذ حملت به عذراء بتول طاهرة دون إن يمسسها بشر، وأنطقه الله وهو في المهد رضيعاً شاهداً بطهارة أمه، مقراً بعبوديته لله جل وعلا، وأن الله هو الذي آتاه الكتاب وجعله نبياً. وقد سماه القرآن عيسى ابن مريم كما سماه المسيح، وأشاد بمعجزاته من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه للموتى بإذن الله في كل حالة من حالات معجزاته. ويحتاج تتبع أخبار عيسى في القرآن إلى مجلدات تشرح رسالته إلى بني إسرائيل. أما الإسلام في مجمله فسار فيما يتعلق بعيسى على تبني الطريق الوسط كما هو ديدنه حيال كل شيء في الكون، فلم يبالغ في شأنه برفعه إلى درجة الألوهية كما فعل المسيحيون، ولم يحط من مقامه إلى حضيض أبناء الزنا كما صنع اليهود، وإنما هو عند الإسلام والمسلمين عبد لله ورسول له إلى بني إسرائيل، مصدق لمن سبقه من الرسل ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد.

مريم في القرآن:

لمّح المحاضر إلى أن القرآن تحدث عن مريم حديثاً عادياً، ولم يضعها في المكان اللائق بها بوصفها أماً للمسيح؛ وأعتقد أنه لا يغيب عن نباهة باحث

جليل مثل محاضرنا أن القرآن الكريم أوضح في سورة آل عمران في غير تعمية أو لبس أن أم مريم نذرت ما في بطنها من حمل لخدمة الرب؛ فلما وضعتها أنثى سمتها مريم وتقول الرواية الإسلامية عنها أنها لما استوفت مريم حقها في الرضاعة سلمتها أمها ـ وفاء منها بنذرها ـ لسدنة الهيكل لتتربى تحت رعاية زكريا؛ وكان خالقها يرزقها وهي في محرابها مطعومات وثماراً في غير أوانها مما لم يعهده بنو إسرائيل. وتتبين مكانة مريم العالية في القرآن في قوله تعالى ﴿**وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين**﴾ وليس بعد اصطفاء الله للمرء مرتين مكانة يطمح إليها مخلوق.

تعدد القصة الواحدة في أكثر من سورة في القرآن:

من ملاحظاتي على أستاذنا المحاضر تعرضه بشيء من المَجِّ لتكرار القصة الواحدة في سور متعددة؛ وما أخاله إلا أنه لم يدرس قصص القرآن بالدقة والأمانة العلمية الواجبتين من مثله، ولو فعل لأدهشه تطور فن بناء القصة وارتباطه الجذري برسالة الإسلام، فالقصص الواردة بالسور المكية منذ نزول الوحي على الرسول ﷺ حتى هجرته إلى المدينة تتحدث غالباً عن الأمم التي أعرضت عن دعوة رسول الله إليها، وعما حل بتلك الأمم من نكال، محذرة الناس الذين أرسل محمد ﷺ كافة إليهم من أن يحل بهم غضب الله كما حل بمن أنكر من الأمم التي ذكرت في تلك القصص. أما القصص الواردة في السور المدنية فهي غالباً مواعظ تهيىء النفوس لتقبل أحكام شرعية سنها القرآن زمن نزول القصة أو قبلها بقليل أو معها أو بعدها بقليل؛ أي أن القصة القرآنية لا تعنى من التاريخ إلا بذلك الجانب منه الذي صورته القصة التاريخية، بإيجاز لا يخل بالمعنى الذي أريد إحاطة المؤمن به للعبرة أو العظة. وقد يأتي القرآن بالقصة كاملة كما في سورة يوسف التي تكاد تسرد قصة حياته، وسورة الكهف التي تحدثنا عن قصة ذي القرنين. والمتتبع لبناء القصة في القرآن الكريم يحس إحساساً عميقاً بأن تكرر القصة مرتبط إلى حد بعيد بالدعوة الإسلامية ونموها وفق خط تصاعدي متناسب مع تناسب زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين، ومع احتياج المجتمع

الإسلامي الوليد إلى أحكام تتماشى مع نمو ذلك الإيمان؛ إذ ما من قصة واحدة تكررت في أكثر من سورة إلا وتناولت في السورة الواحدة جوانب من القصة لم تذكر عند ذكر القصة نفسها في غيرها من السور. وإني مورد في نهاية هذا التعقيب على المحاضرة ثبتاً لترتيب السور وفق تسلسل نزولها ومكانه. والمتتبع لتسلسل النزول والدارس له دراسة متأنية سيحس بالصور التي تعرضها القصة الواحدة عند تعدد إيرادها فيما تلاها من السور.

من أوجع ما في المحاضرة من لمزات للقرآن الذي تولى منزله مهمة حفظه، التي لم تخف على القائل ولا على السامع الحصيف تحدثها عن النسخ؛ ولو أنصف المحاضر لسلم بأن تساوق آيات القرآن منذ بداية النزول إلى نهايته كان تساوقاً متناغماً لا اضطراب فيه ولا انحراف، آياته يفسر بعضها بعضاً لأنها أنزلت لتلبية حاجات المجتمع الإسلامي في زمن امتد ثلاثاً وعشرين سنة، تطورت فيه عقول المسلمين بانتقالهم من المراحل البدائية إلى مراحل حضارة الإسلام الراقية، في وقت قصره قياسي بالنسبة للزمن الذي يستغرقه تطور الشعوب التي لم ينعم عليها الله بقرآن، فكانت الآيات تأتي بالحكم المناسب مرحلياً، وقد تلغيه بآية أخرى بانتهاء تلك المرحلة التي اقتضته، وفق نضج المدارك بالنمو العقلي والرقي الذهني المصاحبين لنمو الحضارة الإسلامية. إذن فلا غرو أن تنزل أحكام يمكن وصفها بلغة عصرنا أحكاماً «وقتية» تنسخ بأحكام أخرى لها طابع الثبات والدوام هي التي بين أيدينا في زماننا. ويجب ألا ننسى أسلوب التدرج الذي كان ديدن القرآن طيلة فترة نزول الآيات القرآنية، ولنضرب بآيات تحريم الخمر مثلاً على ذلك التدرج، فقد بدأت بالتنفير منه بقوله تعالى **﴿ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[8]، فامتنع الورعون عن شرب الخمر؛ ولما ألف الناس انحسار الخمر عن بعض البيوت خطا المنع خطوة أخرى بنزول الآية القائلة: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾**[9] فلما

(8) سورة البقرة، آية: 219.

(9) سورة النساء، آية: 43.

ضعفت عادة تناول الخمر وتلاشت سيطرتها النفسية على العقلاء حسم التشريع قضية منع الخمر بتحريمها نهائياً، فنزلت آية تحريمه تقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾[10] وهذا التدرج مثله في القرآن كثير.

اختلاف الرسم العثماني عن الكتابة المعاصرة:

من همزات المحاضرة للقرآن تقولها على الرسم العثماني وأنه عذر المفسرين للاعتذار عن اختلافهم على تفسير مدلول الكلمات؛ وهذا اعتساف وليٌ لحقائق تاريخ تطور رسم كلمات اللغة العربية، إذ كانت الكتابة العربية في عصر النبوة ترسم خالية من النقط وعلامات التشكيل، بل وفيها بقايا من رسم الكلمات عندما كانت تكتب في طور مبكر من أطوار كتابتها، وعندما كانت الحركات ترسم تالية للحرف مباشرة كما هو الحال في اللغة اللاتينية اليوم؛ فبقيت آثار من هذا الأسلوب في الرسم العثماني حتى اليوم؛ واستمر الرسم العثماني متواصلاً في المصاحف على النمط نفسه الذي كتب به في زمن النبوة حتى جاء الخليل الفراهيدي، فأعجم نصف الحروف الهجائية مميزاً لها بنقطة أو أكثر، بعضها يرسم فوق الحرف وبعضها يرسم تحته؛ كما رسم واواً صغيرة رمزاً للضمة وألفاً أفقية ترسم فوق الحرف رمزاً للفتحة وتحته رمزاً للخفضة؛ كما رسم حلقة صغيرة فوق الحرف الساكن، أي العاري عن الحركة (وتلوح الفرصة هنا لِلفت النظر إلى أن حركات الحروف العربية ثلاث وهي الضمة والفتحة والخفضة؛ أما السكون فليس بحركة كما تكرر أكثر من مرة في المحاضرة عند تدليلها على فقر تنوع حركات اللغة العربية، قياساً إلى ضخامة عدد حركات اللغات الصقلبية والجرمانية التي قد تصل إلى تسع حركات. ومن أعجب العجب تسمية المحاضرة لعلامة السكون في الحروف العربية حركة إذ كيف يغيب عن الفطِن أن اجتماع الحركة والسكون في حرف واحد أمر مستحيل عقلاً) وعودة إلى سياق الحديث، مع غض النظر عن تصوير المحاضرة لصعوبات تواجه

(10) سورة المائدة، آية: 90.

الساعي إلى تعلم العربية ـ لا وجود لها حقيقة إلا في بعض الأذهان ـ فنقول: إن نظام رموز الإملاء الذي ابتدعه الفراهيدي ـ ويرى بعضهم أن الحجاج بن يوسف هو مبدع رسم تلك الرموز بحبر مختلف لونه عن لون حبر الحروف؛ كما يرى أن الفراهيدي لم يزد عن إكمال ما بدأه الحجاج؛ ومهما يكن من أمر فسواء أكان مبدع نظام الإعجام هو الحجاج أم الفراهيدي فلا زال هذا النظام متبعاً في كتابة المصاحف حتى اليوم، مع الحفاظ على نمط الكتابة كما كان في زمن النبوة دون أي تغيير، باستثناء إدخال التشكيل الذي أحدثه الحجاج أو الفراهيدي. وهو نمط يختلف بعض الشيء عن نمط الكتابة المعاصرة، إلا أنه نمط ـ على خلاف ما قالته عنه المحاضرة ـ يمكن تلقينه لطالبه بسهولة بالغة، كما يمكن التدرب على طريقة قراءته دون خطأ يذكر؛ ويشهد الواقع على سهولة قبول الفروق بين كتابة النص القرآني بأسلوبه المميز له وبين الكتابة العصرية.

الإشارات العلمية في القرآن:

تضمنت المحاضرة اتهاماً صريحاً للمسلمين بتعلقهم بتفسير القرآن تفسيراً روحياً مع انصرافهم تماماً عن التفسير المادي للإشارات العلمية الواردة في القرآن، وكأنما هذه الإشارات العلمية لم تتضمنها ترجمة معاني القرآن إلى اللاتينية وغيرها، منذ قرون طويلة قبل النهضة العلمية الغربية التي بدت طلائعها مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي، وبالتالي فلا يلام على عدم الاستفادة منها إلا المسلمون. ومن تلك الإشارات العلمية الإشارات التالية:

(1) قوة سلطان العلم:

تحدثت المحاضرة عن أن القرآن سبق أن تحدث عن سلطان يحتاج الناس إلى اكتشافه؛ وأطالت الحديث عن أن «المسلمين المتعلقين بالروحانيات أرهقوا أنفسهم في تفسير جميع ما في القرآن تفسيراً روحياً، فلم يتمكنوا من اكتشاف ذلك السلطان؛ وهذا الحكم من المحاضر يظهر تجاهلاً شديداً لحقائق تاريخ الحضارة الإسلامية، إذ عندما كانت تلك الحضارة في عنفوانها كانت الماديات

عند المسلمين لا تقل أهمية عن الروحانيات؛ فمحاولة ابن فرناس تثبت اهتمام المسلمين بالطيران مادياً لا روحياً، وهي تدل على أنه وأضرابه كانوا يفقهون قول الله أن الإنسان عاجز عن الخروج من جاذبية الأرض إلا بسلطان مادي لا روحي فقط؛ ونرى الإنسان اليوم بعد أن توافر له ذلك السلطان ـ وهو سلطان مادي ـ يتمكن من الوصول إلى القمر. وحديث القرآن عن السلطان هو إشارة علمية مثل الكثير غيرها من الإشارات العلمية التي وردت في القرآن الكريم منذ ما ينوف عن أربعة عشر قرناً وإن لم تتبين للناس حقيقتها فلم يفهموها حق فهمها إلا في ضوء العلم الحديث. فقد صور لنا القرآن الكريم حالة الإنسان عند تملُّصِه من جاذبية الأرض تصويراً دقيقاً انطبق على حالة الروسي قاقارين أول رائد فضاء، وعلى حالات من تلاه من رواد الفضاء، وكنا عرفناها من القرآن قبل أن يجربها الإنسان عملياً حيث صورها لنا منذ أكثر من 1400 سنة بقوله ﴿. . . **يجعل صدره حرجاً ضيقاً كأنما يصعد في السماء**﴾[11]. ولما لم يصعد أحد من الناس إلى خارج جاذبية الأرض قبل الرائد الأول للفضاء، فلم تكن هذه التجربة معروفة للإنسان، فلما حدثت كانت عوناً على فهم ما سبق للقرآن أن صوره لنا قبل حدوثه بمئات السنين.

(2) عظم مواقع النجوم:

أشارت المحاضرة إلى أن بعض علماء المسلمين لا يؤمن بكروية الأرض لأنه لا يؤمن بالعلم الحديث. وكما أن جهل الكثير من المسيحيين بالإنجيل الحق لا يحط من قدر الإنجيل فإن ما أشارت إليه المحاضرة لا يلغي حقيقة أن القرآن أشار إلى كثير من الأمور التي كشفها العلم الحديث، ومن بينها الأبعاد الهائلة لمواقع النجوم التي يقول عنها الله تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾[12] وما كان لهذا القسم من معنى واضح في الأذهان حتى جاء العلم الحديث فكشف لنا أن الشمس ـ مثلاً ـ تتم دورتها الواحدة في

(11) سورة الأنعام، آية: 125.

(12) سورة الواقعة، آية: 75.

مجرتها في مائتين وخمسين سنة ضوئية؛ ولكي ندرك ضخامة هذه الأبعاد، التي ما كان العقل البشري مستطيعاً تصورها حتى مكنه العلم الحديث من أن يفهم أن سرعة الضوء هي 000 168 ميل في الثانية. وبما أن السنة تشتمل على 000 536 31 ثانية دون النظر إلى كسور اليوم من أيام السنة المشكل للسنة الكبيسة؛ وإذا ما حسبنا سرعة الضوء في السنة الواحدة وضربنا حاصله في 250، فسنجد أن على الشمس أن تقطع 000 000 800 284 301 ميلاً تقريباً لكي تتم دورتها في مجرتنا؛ وإذا علمنا أن مجرتنا هي واحدة من مائة ألف مجرة معروفة حتى اليوم فستتصور عظم مواقع النجوم التي أقسم الله جل وعلا بقدرة خلق تلك المواقع، التي هي أعظم من النجوم نفسها.

(3) الماء ودورته:

أشارت المحاضرة إلى أن المسلمين يقولون بما سبق أن قاله الأقدمون، الذين كانوا يظنون ـ حسب تخيلاتهم القاصرة ـ أن ماء المطر ينزل من السماء على اعتبار أن السماء سقف للأرض، إلى أن أثبت العلم الحديث أن العينات التي أخذت مما في الفضاء من هباء يرتفع إلى خمسين كيلومتراً عن سطح البحر؛ أي فيما فوق طبقة غاز الأوزون، أثبتت خلو الفضاء المحيط بالأرض من أي ذرة رطوبة. وبعبارة أوضح، فالهواء المشبع ببخار الماء هو وحده الهواء المغلف للكرة الأرضية. ولو عقل المسلمون حقيقة معاني قرآنهم لاكتشفوا وأعلنوا تلك الحقيقة العلمية منذ أربعة عشر قرناً ونيف، أي عندما نزل قوله تعالى ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾[13] هذه الآية قررت أن الماء الذي في الأرض وعلى الأرض وفي هواء الأرض خارج من الأرض، ولو عقلنا قرآننا الكريم لاكتشفنا نحن دورة المياه المتمثلة في أن ماء سطح الأرض إذا سخن تبخر وصعد مع الهواء إلى الأعلى، فإذا برد نزل على الأرض مطراً، فإن ازدادت برودته نزل برداً؛ فإن بلغت درجة برودته ما يقارب المائة تحت الصفر (أي نقيض

---

(13) سورة النازعات، آية: 30.

درجة غليان الماء وهي درجة المائة فوقه) تحول الماء إلى جبال من جليد لا تلبث أن يفككها ثقلها فتتساقط على الأرض كالقطن المنفوش، ولعل هذا هو ما عنته آية سورة النور بقولها ﴿**وينزل من السماء من جبال فيها من برد**﴾[14] وربما كانت هذه البرودة العالية التي تحول ما في الهواء من الماء إلى جبال ثلج هي درجة البرودة التي سماها القرآن زمهريراً.

(4) اعتماد حياة كل حي على الماء:

أخذ المحاضر على بعض المسلمين استهانتهم بأثر دور الماء في حياة الأحياء، بعدم إعطائه حقه من الأهمية التي يستحقها، على الرغم من شدة ارتباط عبادات المؤمنين بالقرآن بالماء. ولعل من سخرية القدر أن يوجه هذا النقد لبعض المسلمين، والمقصود طبعاً بهذا البعض هم العرب سكان الصحراء؛ وأود أن أعلق على الحط من شأن العرب بالتساؤل عمن هو أجدر من قاطن الصحراء بمعرفة قيمة الماء؟ وكان حرياً بالمسلمين أن يعرفوا أن من ثوابت الحقائق العلمية أن جسم الإنسان ومثله جميع أجسام الحيوانات مكون من خلايا متراصة تسبح في حوض مملوء ماء اسمه «جلد»، فإذا جف ما في الحوض من ماء ماتت الخلايا، وبموتها يموت الكائن الحي. ويلحق بعالم الحيوان عالم النبات في اعتماده على الماء. وكان الإنسان يجهل هذه المعلومة حتى كشفها العلم الحديث. ولعل عوالم أخرى لمَّا يكتشفها العلم بعد، فلم نعرفها تعتمد هي الأخرى على الماء؛ وما أحرانا نحن العرب وبقية المسلمين أن نسبق العالم إلى معرفتها منذ زمن بعيد لو تدبرنا قوله تعالى ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حيّ**﴾[15].

(5) التهاب الماء:

تحدثت المحاضرة في زهو عن تعرف الغربيين غرائب خصائص الماء مثل

---

(14) سورة النور، آية: 43.

(15) سورة الأنبياء، آية: 30.

الخصيصة التي ينفرد بها، وهي تمدده النسبي بالبرودة وانكماشه النسبي بالحرارة، خلافاً لجميع الأجسام الأخرى فيما هو معروف حتى اليوم؛ وعن تمكنهم من جعل ذرتين من ذرات هيدروجين الماء تلتهب وتلهب ما حولها مستفيدة من ارتباط حدوث اللهب بتوافر الأكسجين، وهو العنصر المكمل للذرات الثلاث التي يمزجها جزيء من الأزوت فتشكل الماء، كأنما أرادت المحاضرة أن تقول: إن علم الغربيين بلغ درجة من التفوق قادرة على قلب خصائص الأشياء. غير أن خصيصة التهاب الماء كانت محور تفكير مفسري قوله تعالى ﴿**والبحر المسجور**﴾[16] وقوله تعالى ﴿**وإذا البحار سجرت**﴾[17] ولما لم يكن الناس يعقلون فكرة التهاب الماء وهو الشيء الذي درجوا على أن يطفئوا به جمر النار، فضلاً عن لهبها، فقد فوضوا أمر فهمها إلى منزلها جل وعلا ليجليها حين يأتي وقتها، كما هو ديدنهم في تفسير كل ما يعسر عليهم فهمه؛ ولا عبرة في هذا المقام بمن يلجأ منهم إلى الإسرائيليات والتخرصات لسد الفراغات النائشة عن عجزهم عن استيفاء حقائقها العلمية. ومع إيمانهم العميق بقدرات الله غير المحدودة، فقد توقفوا عند هذا الحد بعد أن عجزت أفهامهم عن إسعافهم بتفسير نظرية التهاب الماء. وجاء العلم الحديث فمكن من اختراع القنبلة الهيدروجينية، التي فجرت عناصر الماء لهباً ففهم الناس معنى تسجير الماء.

(6) كروية الأرض:

افتخر المحاضر كما يفتخر الكثير من علماء الغرب بالعالم الإيطالي «جاليلو جاليلي» لبرهنته علمياً على صحة نظرية كوبيرنيكوس القائلة بأن الأرض ليست ثابتة وليست مركز الكون وإنما الشمس هي المركز الذي تدور حوله أرضنا ضمن مجموعة كواكب شمسنا. فأصدرت جمعية «الإنديكس»[18] يوم 15-3-1616

---

(16) سورة الطور، آية: 6.

(17) سورة التكوير، آية: 6.

(18) شكلت الكنيسة سنة 680 م جمعية قائمة الإنديكس من كبار الأساقفة ليدونوا فيها الكتب المحرم على المسيحي تداولها والتعامل معها.

يتحريض من البابا باولو الخامس مرسوماً كنسياً يحظر على جاليلي القول «بنظرية الحركة المزدوجة للأرض حول الشمس، لأنه مبدأ زائف ومتعارض تماماً مع الكتابات المقدسة» وأن هذه النظرية يجب أن لا تدرس ولا تناصر. وأدان المرسوم نفسه جميع كتب كوبير نيكوس إلى أن تصحح لتتفق مع نظريات محكمة التفتيش، بما في ذلك جميع الكتب المستوحاة منه، التي تؤكد حركة الأرض[19]. ومع الإقرار بأن الكثير من الناس في مشارق الأرض ومغاربها ينكرون كروية الأرض ودورانها حول الشمس فإن المسلمين ـ وإن كانوا يفخرون بما لدى جاليلو من علم نفع به الإنسانية ـ فإنه يسوءهم تجاهل عالم كبير من عيار المحاضر حقائق تاريخ الحضارة الإسلامية، ويقررون أن تلك الحقائق تخالف ما جاءت به المحاضرة. فقبل 400 سنة من مولد جاليلو كانت جملة (لا ينكر كروية الأرض إلا جاهل) من ضمن أقوال الزمخشري صاحب تفسير الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**يكور الليل على النهار ويكون النهار على الليل**﴾[20] وتحدث عن تكوير الشمس بما يشبه تكوير العمامة[21]. وقال بعض علماء المسلمين عند تفسير قوله تعالى ﴿**والشمس تجري لمستقر لها**﴾[22] إنه يستحيل عقلاً أن تجري الشمس والقمر وبقية الكواكب وهي تسبح في أفلاكها إلا إذا كانت مستديرة، فالكتل غير المستديرة لا تستطيع الجري كما هو مشاهد، وبالتالي فإذا لم تكن الأرض كروية فكيف جبالها ﴿**وترى الجبال جامدة وهي تمر مرّ السحاب**﴾[23] وما جبال الأرض إلا أوتاد راسخة في الكرة الأرضية لا تتحرك إلا بحركتها. وقد شاهد الرواد الذين نفذوا إلى الفضاء كروية الأرض بالعين المجردة.

---

(19) Dirrionariodi Condiziani Vtili V.2 P.828. Edirione nuove Torino 1926.

(20) سورة الزمر، الآية: 5.

(21) مكتبة الأوقاف بنغازي بحث مخطوط بعنوان «السراج الوهاج».

(22) سورة يس، الآية: 38.

(23) سورة النمل، آية: 88.

(7) القرآن كهرباء:

أفاضت المحاضرة في الحديث عن براعة الناس في الغرب عن استثمار الكهرباء واستخدامها في مختلف سبل الحياة ومناحيها، فاستناروا واستدفأوا واستبردوا وتطببوا بها، بل وسلبوا بها من المجرم حياته، وطاروا بها في الفضاء، وغاصوا بها في البحار والمحيطات، وأوصلوا بها أصواتهم وصورهم إلى جميع بقاع الأرض مرسلة بجهاز كهربائي، ومستقبلة بجهاز كهربائي أيضاً. أترانا لن نسبقهم في مجال هذه الاختراعات ونبتدع غيرها لو أننا فهمنا قوله تعالى **﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾**[24] وعقلنا أن لمعة البرق الواحدة تكفي لإنارة مدينة يسكنها نصف مليون شخص شهراً كاملاً.

(8) خلق الإنسان من تراب:

أشارت المحاضرة في شيء من السخرية الخفية إلى أن بعض المسلمين يروون قصصاً عن خلق آدم من طين، اقتباساً من التوراة والإنجيل. وأعلّق على سخريتها جاداً قائلاً: أنه كلما تطور العلم التجريبي الحديث أعان على تفهم الإشارات الواردة في القرآن ـ وليس اقتباساً من التوراة والإنجيل ـ التي تؤكد أن الإنسان خلق من **﴿طين لازب﴾**[25] أي مبتل إذ إنّ التكوين البدني للإنسان يحتاج إلى 35 عنصراً توجد كلها على وجه من الوجود في تراب الأرض يستخلصها الجسم مما يأكل من طعام ويشرب من لبن وماء، مصدرها كلها تراب الأرض. ودون الدخول في تفاصيل الفهم الساذج للخلق من الطين، علينا أن نتفهم بتدبر قول الله لنا **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾**[26] ولم يقل أحد أن الله ملس تمثالاً على هيئة بشر من طين لازب أي معطون ثم نفخ فيه فكان عيسى؛ وبما أن آدم وعيسى عليهما السلام متساويان في كيفية الخلق كما شهد بذلك القرآن؛ فلم الخلط ما دامت المواد التي تكون جسم

---

(24) سورة النور، آية: 43.

(25) سورة الصافات، آية: 11.

(26) سورة آل عمران، آية: 59.

الإنسان يحتكرها التراب ولا قيام لجسم الإنسان بدونها. لـذلك لـو أن علماء المسلمين تلقفوا إشارة القـرآن العلمية إلى الـظلمات الثـلاث في قولـه تعالى ﴿**يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث**﴾[27] ودرسوها بتدبر لتوصلوا إلى مدلول إشارات القرآن إلى الخلق الذي يبتدىء بنطفة فعلقة فمضغة؛ ولعلموا من أي شيء تتكون، ولما احتاج المسلمون وبقية العالم إلى الانتظار قروناً حتى يأتي العلم الحديث فيخبرنا عن المواد اللازمة لتكوين بدن الإنسان، وأنها كلها من تراب، وأن التشريح والتصوير الدقيقين بينا أن الجنين محصن في رحم أمه، محاط بثلاثة أغشية صماء أشبه بالحصون، لا ينفد منها الضوء ولا الحرارة ولا الماء، يسبح في سوائل مشيمته الواقية له من الصدمات العادية التي تصادف الحامل في حياتها اليومية. وهذه الأغشية هي التي سماها القرآن بالظلمات الثلاث، والحبل السري الذي يربطه بأمه هو الطريق الوحيد لحصول الجنين على حاجته من الأكسوجين والغذاء الذي هو كله من تراب، سواء أكان معادن أم أملاحاً أم غيرها من المواد بقطع النظر عن دور التمثيـل الضوئي.

خلق السماوات والأرض:

أشارت المحاضرة إلى أن معلومات العلماء المسلمين عن خلق السماوات والأرض مأخوذة ـ قبل أن يعرفوا شيئاً من العلم الحديث ـ من كتابي بدائع الزهور في وقائع الدهور، وعجائب المخلوقات وأمثالهما. وتعليقاً عليها أقول إن معارف تلك الكتب التي تسخر المحاضرة منها ما زالت أقل إغراقاً في الجهل من أساطير الإغريق والرومان، التي كانت أحد مصادر العلوم في أوربا إلى أن نقل إليهم العرب علوم الإغريق لا أساطيرهم، بعد أن أثروها وزادوا عليها علوماً لم تكن معروفة عند الإغريق والرومان، ولم يأخذوا بفهم السـذج من محتكري تفسيـر الديانات، لما تقوله الكتب السماوية الثلاثة المتداولة بين الناس، من أن الله

(27) سورة الزمر، آية: 6.

خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الأرض؛ ففوضوا الأمر فيما لم يعقلوا لله ولم يقطعوا فيه برأي، بعد أن فطنوا إلى التفاوت الشديد بين طول اليوم الذي يعرفونه على الأرض وبين الأيام التي طول الواحد من بعضها ألف سنة مما نعد، أو اليوم من النوع الذي طوله خمسين ألف سنة من سني الأرض، دفعهم ذلك التفاوت إلى الشك في مدلول كلمة يوم من أيام الخلق الستة حتى أثبت العلم الحديث أن لكل كوكب أو نجم من ملايين الكواكب والنجوم قوانينه الخاصة به التي سنها الخالق له، تتناسب مع حجمه وبعده وقربه من شمسه، فيوم الأرض في مجرتنا غير يوم القمر وكلاهما مخالف ليوم عطارد مثلاً، وهي أيام تختلف من جرم فلكي إلى آخر ومن مجرة إلى أخرى.

وعلَّمنا القرآن أن عدة شهور السنة الأرضية 12 شهراً وتبين بالمشاهدة والرصد أن عدة الشهر القمري تسعة وعشرون أو ثلاثون يوماً، أي أن يوم الأرض يتكرر ما يزيد قليلاً عن 365 مرة لتتم الأرض دورتها حول الشمس. هذه الفروق بين أطوال الأيام تقبلته عقول المسلمين بيسر وتفهموا إشارات القرآن إلى ما هناك من أيام يبلغ طول الواحد منها طول ألف سنة من سني الأرض، وهو ما جاء في قوله تعالى ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾[28] وذكر القرآن يوماً آخر في قوله تعالى ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾[29] أي أن طوله طول خمسين ألف سنة مما نعد من سني الأرض. وإذا ما صدق بعض الجيولوجيين القائلين بأن الزمن الذي استغرقه تجمد قشرة الأرض في الشكل الذي هي عليه الآن هو 300 ألف سنة؛ أي أن سطح الأرض تجمد في مدة زمنية مساوية للستة أيام من الأيام المماثلة طولاً لليوم الذي طوله خمسين ألف سنة أرضية. ومع أن علم الأمور كلها عند الله جل وعلا فإن هذه العملية الحسابية تذكرنا بما جاء في قوله تعالى جل شأنه وله المثل الأعلى: ﴿**الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام**﴾[30].

---

(28) سورة الحج، آية: 47.

(29) سورة المعارج، آية: 4.

(30) سورة السجدة، آية: 4.

إننا نرى في كل هذا أدلة على أننا عندما ندرس الإشارات العلمية في القرآن دراسة متدبرة كما أرشدنا القرآن نفسه، فنفهم أسراره وسنسبق علماء الغرب الذين شرعوا في دراسة ما في تلك الإشارات من جوانب علمية يمكن استغلالها في تطوير المخترعات، مع أن المسلمين أجدر بالسبق إلى فهم هذه الإشارات التي هي ليست غريبة عنهم فهم يتعبدون بتلاوتها منذ أربعة عشر قرناً.

ما ذكرته هنا في هذا التعليق على المحاضرة ليس نوعاً من الاستقصاء لكل ما في كتاب الله من إشارات علمية فذاك مطلب بعيد، ولكنها شذرات يستشهد بها على أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عند غير الله الخالق لهذه الأشياء كلها، العالم بكنهها والمورد إشارات علمية تشير إليها تستلفت نظر المتدبرين لكتاب الله. والحق أننا لو عقلنا القرآن على الصورة التي يجب أن نعقله عليها لما جرؤ أي محاضر مهما بلغ من العلم على السخرية منا ومن معارفنا.

نخرج من كل هذا متسائلين: هل كان محمد ﷺ خبيراً بعلم الأجنة أو عالم فلك أو عالم رياضيات أو عالم جيولوجيا وغيرها من العلوم حتى يحدثنا من عنده بكل ذلك؟ لا والله بل هو الوحي قبله من قبل ورفضه من رفض. إنني أحترم الرأي الفلسفي القائل بأنه «لا يجوز الاستشهاد على صحة ما في كتاب بما في الكتاب ذاته» إلا أن استطالة الزمن الذي مر على بعض ما ورد في القرآن من أحداث استطالة فاقت ما مر من زمن على أحداث مثيلات لها حدثت لرسل سابقين هي حجج دامغة أسوقها للعقلاء دليلاً على صحة ما جاء في القرآن من ذلك:

1 ـ مرور 14 قرناً ونيف على نزول القرآن دون أن تتغير فيه كلمة واحدة مما يثبت عملياً لغير المسلمين قوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[31] بينما يقرُّ الحاخامات والقسيسون بما لحق التوراة والإنجيل من تحريف شديد في نصوصهما، وبالتالي في مفهومهما، فضلاً عن التضارب الكبير

(31) سورة الحجر، آية: 9.

بين الأناجيل الخمسة الموجودة بين أيدينا، مع ملاحظة أن الكنيسة تعتقد بعصمة كتبة أربعة منها عن الخطأ.

2 ـ مـر على بعثة رسول الله ﷺ ما ينوف عن 1425 سنة دون أن يـظهر رسول واحد صادقة رسالته طائل عمرها؛ وفي هذا لغير المؤمن مصداق لقوله تعالى ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[32].

ترجمات معاني القرآن إلى اللغات الأخرى:

عرجت المحاضرة على الإشادة بفضل أوربا على ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الحية؛ وأفاضت في الحديث عن تمتع أوربا بالحرية في إبداء الرأي، وإفساح المجال أمام حرية الكلمة المطبوعة وإزالة أي قيد عن أي عمل ثقافي مكتوب أو منطوق؛ وعن السماح عن طيب خاطر بترجمـة معاني القـرآن على الرغم من تعارضه مع التوراة والإنجيل، وهمـا ركيزتـا المسيحية؛ واستغـرقت التعريجة ثلث الوقت المخصص للمحاضرة ونقاشها مما أدى إلى تأجيل مناقشة المحاضر فيما قال. وأنا قد أوافق المحاضر على رأيه لو قصر حديثه عن حرية الكلمة في أوربا على القرنين التاسع عشر والعشرين، وهما الفترة التي شهدت التدني التدريجي لنفوذ الكنيسة على المسيحي الأوربي؛ أما القرون السابقة فلم يشهد العالم تحجيراً على الفكر كما شهدته أوربا، وبخاصة فيما يتعلق بالقرآن. وفيما يلي مظاهر تحرم الكنيسة على المسيحي في الغرب والشرق التعامل مع القرآن:

أ ـ أدرج القرآن في قائمة الكتب التي تحرم الكنيسة على أتباعها قراءتها أو امتلاكها أو الاطلاع عليها. وهي القائمة المعروفة بـ(الإنـديكس) التي استمر العمل بها منذ إنشائها في أواخر سنة 680 م وبقي القرآن على رأس تلك القائمة ما يقرب من 1300 سنة، حتى رفعه المجلس المسكوني الثاني منها سنة 1965.

ب ـ في أثناء حكم ملك إسبانيا ألفونس السابع أنشأ الأسقف «رائهوند»

---

(32) سورة الأحزاب، آية: 40.

مركز ترجمة صدرت عنه بين سنتي 1130 و1150 م ترجمات كتب كثيرة من بينها كتب الفيلسوفين ابن سينا وابن رشد وغيرهما، ولم يجرؤ على ترجمة القرآن.

ج ـ أنشئت في عهد الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني جامعة نابلي فقامت بترجمة أمهات الكتب العربية لمختلف المؤلفين المسلمين ولكنها لم تترجم القرآن الكريم طليعة الكتب الإسلامية ورأسها.

د ـ أصدر أسقف بارشيلونه رئيس محكمة التفتيش «مارتين قارسيا» أمره إلى الراهب يوحنا آندريبانوس (وهو عالم بلنسي مسلم أجبر على التنصر) بترجمة القرآن إلى الإسبانية وحرض الأسقف الراهب على أن يضمن الترجمة شروحاً تشكك فيما فيها من أحكام فأطاعه؛ وتضمنت كل ترجمة صدرت بعدها تزييفاً للتفسير بعامة وللأحكام بخاصة؛ واستمر التزييف حتى منتصف القرن الثامن عشر. أما الترجمة التي تمت في دير كيليني خلال السنوات الثلاث من 1141 إلى 1143 وأنفق عليها القس «بطرس دي مونت بوا» مالاً كثيراً فقد ألحق بها تشويه شديد مثلها مثل 99٪ من كل الترجمات التي تلاحقت عبر القرون، حاملة أغلاطاً متعمدة فاحشة. ولو لم توهم المحاضرة واللهجة التي ألقيت بها السامعين بأن أوربا كانت دائماً متسامحة مع القرآن لما أفردت لترجمة معاني القرآن إلى لغات أوربا هذا الفصل من التعليق. والقليل الذي ذكرته لا يمثل شيئاً لو أني استعرضت كل ترجمات معاني القرآن وما شابها من تحريف لا يخفف من الطعن فيه صدق ترجمة أو اثنتين، يبدو أن التحريف فيهما لم يتعمد، مثل ترجمة المستشرق «آندريا دي رَيْتَيّيْرْ» المطبوعة في باريس سنة 1647. وترجمة القس الإيطالي «بييترو لويجي ماراتشي» المطبوعة في بادفا سنة 1698.

شكراً للأستاذ المحاضر على إتاحته هذه الفرصة لإبداء رأيي في تعامل الأوربيين رجال دين وعلماء علمانيين مع كتاب الإسلام القرآن الكريم. وإن نقدي للمحاضرة لا ينقص شيئاً مما أشعر به من تقدير للعلم وأهله والأستاذ المحاضر من خيرة أهله بين الأوربيين.